الفصل الحادى عشر

طوائف من الشعراء

١

الفرسان

رأينا القبائل فى الجاهلية تعيش معيشة حربية ، فهى كتائب تنزل للرعى ، وفى الوقت نفسه تجهّز بالأسلحة كى تدفع خصومها عن مراعيها، أو تغير عليهم وتسبى نساءهم وتنهب أموالهم من الإبل وغير الإبل . وكانوا يحاربون راجلين وركباناً على الإبل والخيل ، وكانوا يرون فى الثانية مزية على الأولى لسرعتها فى الطِّراد والإغارة، فأحبوها وعُنوا بها وبتربيتها وصيانتها واستنتاج كرائمها وترويضها للحروب والسباق . وقد دارت أوصافهم لها فى شعرهم الجاهلى ، فلم يكادوا يتركون عضواً من أعضائها إلا وصفوه ، ولا خصلة ولا عيباً إلا ذكروهما، وفى معلقة امرئ القيس صورة من وصفهم لخيلهم، وممن اشتهر بوصفها أبو دُؤاد الإيادى وطُفيل الغنوى وسلامة بن جَنْدل التميمى .

واشتهر كذلك جماعة من الفرسان الذين أظهروا بطولة نادرة فى حربهم عليها لخصومهم وأقرانهم ، وهم كثيرون ، فقد كان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها الذين يتدربون على ركوب الخيل طويلا وكيف يقفزون عليها ويشهرون سيوفهم ويلوّحون برماحهم وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم . وتلقانا دائماً أسماؤهم وخاصة فى حروبهم الطويلة مثل حرب البَسُوس وفارسها المهلهل التغلبى ، وهو الذى أشعل نيرانها ثأراً لأخيه كليب ، ويقال إنه أول من هلهل الشعر وأرقّه[1] . وشعره يدور فى رثاء أخيه وتوعُّد قبيلة بكر بما سينزله بها من هزائم لا تقل شدة ولا فتكاً عن هزائمها السابقة ، وكانت الحرب كما قدمنا فى غير هذا الموضع بين بكر وقبيلته تغلب

(١) انظر أخباره فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٣٤ والشعر والشعراء ١/٢٥٦ وخزانة الأدب للبغدادى ١/٣٠٢ .

سِجالا ، تارة تنتصر هذه وتارة تنتصر تلك . وكان لا بنى يحمّس قومه ويدعوهم إلى مواصلة القتال ، مفصحاً فى أثناء ذلك عن رغبة حارة فى الانتقام ، واسمعْه يقول : (١)

وإنى قد تركتُ بواردات ... بُجَيْرًا فى دَمٍ مثلِ العَبيرِ (٢)
وهمّام بن مرّةَ قد تركنا ... عليه القَشْعمان من النُّسورِ (٣)
وصبَّحنا الوُخومَ بيومِ سَوْءٍ ... يُدافعْن الأَسنَّةَ بالنُّحورِ (٤)
كأنا غُدْوَة وبَنى أَبينا ... بجَوْفِ عُنَيْزَةٍ رَحَيا مُدبرِ (٥)
فلولا الريحُ أُسْمِعَ أَهلُ حِجْرٍ ... صَليلَ البَيْضِ يُقْرَع بالذكورِ (٦)

وواضح أنه يفخر بانتصاراته على بكر فى موقعة واردات وموقعة عنيزة ، وقد قتل فى الأولى بجير بن الحارث بن عُبَاد أحد فرسان بكر كما قتل همام بن مرة أخا جساس ، وكم قتلوا من عشيرة الوخوم ، ولم يكن يوم عنيزة بأقل من يوم واردات فيما اصطلته بكر من حرّ اللقاء .

ومن فرسانهم المشهورين عامر بن الطُّفَيل (٧) فارس بنى عامر بن صعصعة أقوى عشائر هوازن وأشدها بأساً ، وكان بنو عامر ينتشرون فى أواسط نجد شرقى الحجاز ، وجنوبى منازل عبس وذبيان ، وغربى منازل بنى تميم ، وكانت مراعيهم تمتد جنوباً حتى بنى حنيفة فى اليمامة وبنى الحارث بن كعب فى نجران ومذحج فى شمالى اليمن . ولما نشبت الحروب بين عبس وذبيان أخذوا صف عبس ، فاصطدمت بذبيان وأحلافها . وقد جعلهم انتشارهم فى أواسط نجد يحاربون

---

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١٧٤ والأغانى ٥/٥٣ .
(٢) واردات : موضع سميت به موقعة حدثت فيه بين بكر وتغلب فى حرب البسوس . العبير : الزعفران .
(٣) القشعم من النسور : الضخم ، وهمام : أخو جساس قاتل كليب .
(٤) الوخوم : عشيرة من بكر .
(٥) عنيزة : موضع سميت به إحدى وقائع حرب البسوس . والرحيان إذا أدارهما مدير أثرت كل منهما فى الأخرى ، والصورة واضحة .
(٦) حجر : قرية باليمامة . البيض : خوَدُ الحرب . يقرع : يضرب . والذكور : أجود السيوف وأيبسها وأشدها .
(٧) انظر أخبار عامر فى الأغانى (طبعة الساسى) ١٥/٥٠ ، وراجع ترجمته الشعر والشعراء ١/٢٩٣ وانظر الخزانة ١/٤٧٣ ، ٣/٤٩٢ والمعمرين ص ٦٠ وشرح النقائض فى يوم فيف الريح ص ٤٦٩ وشعب جبلة ص ٦٥٤ وتاريخ ابن كثير ٥/٥٦ والسيرة النبوية ٤/٢١٣ .

قبائل كثيرة مضرية ويمنية .

ولعامر بن الطفيل ديوان نشره لايل مع ديوان عبيد بن الأبرص فى سلسلة جب التذكارية ، وهو فيه دائم الحديث عن فروسيته وحسن بلائه فى حروب قومه مع ذبيان فى يوم الرقم ويوم ساحوق وغيرهما من الأيام . وقد أظهر بطولة نادرة فى يوم فيف الريح وكان لقومه على بنى الحارث بن كعب النجرانيين وعشائر مذحج ، وتغنَّى به طويلا فى شعره على شاكلة قوله [١] :

لقد علمتْ عُلْيا هوازنَ أننى ... أنا الفارسُ الحامى حقيقةَ جعفرِ [٢]

وقد علم المزنوقُ أنى أَكُرُّهُ ... على جَمْعهم كرَّ المَنيحِ المشهَّرِ [٣]

إذا ازورَّ من وَقْع الرماح زَجَرْتُهُ ... وقلتُ له : ارجعْ مقبلاً غير مُدْبرِ [٤]

وأَنبأْتُه أن الفِرار خَــزَايةٌ ... على المرء ما لم يُبْلِ جهدًا ويُعْذِرِ [٥]

أَلستَ ترى أرماحهم فىَّ شُرَّعا ... وأنت حِصانٌ ماجدُ العِرْق فاصبرِ [٦]

وقد علموا أنى أَكُرُّ عليهمُ ... عشية فَيْفِ الريح كَرَّ المدوَّرِ [٧]

وما رِمْتُ حتى بَلَّ نحْرِى وصدْرَه ... نجيعٌ كهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُسَيَّرِ [٨]

وهو يصور فى هذه القطعة اقتحامه للحروب ، وكيف أنه لا يتخلَّى عن بسالته الحربية ، حتى يحمى عشيرته وضعفاءها ونساءها ، ويقول إنه لا يزال يردّ إلى الحرب فرسه المزنوق كلما خرج منها ، وإن ازورَّ عنها أو انحرف دفعه فيها دفْعاً ، أما الفرار وعاره فدونه الموت ، ويدعو فرسه إلى التأسى به ، فالرماح تنوشه من كل جانب وهو يهجم على أعدائه غير مبال ، ويدعو فرسه إلى الصبر معه ، حتى

---

(١) المفضليات ص ٣٦١ .

(٢) عليا هوازن : مجموعة من قبائلها هى سعد وجشم ونصر وثقيف . وحقيقة : حمى . جعفر : عشيرة عامر ، وهى جعفر بن كلاب ابن ربيعة بن عامر .

(٣) المزنوق : اسم فرسه . المنيح : من قداح الميسر ويكثر جولانه فى القداح . فكلما خرج منها رد فيها .

(٤) ازور : مال وانحرف .

(٥) خزاية : خزى . يعذر : يأتى بعذر .

(٦) شرعاً : مسددة .

(٧) المدور : الذى يطوف بالدوار وهو من أصنامهم .

(٨) ما رمت : ما برحت . النجيع : الدم . الدمقس : الحرير . المسير : برود من اليمن بها خطوط .

ينالا شرف النصر جميعاً ، ويلمع أمام عينيه يوم فيف الريح وما أظهر فيه من بسالة ، ويقول إنه لم يبرح موضعه فى ميدان القتال ، حتى غرق نحره وصدر فرسه بالدماء .

واشتهر عامر كما مر بنا بمنافرته لعلقمة بن عُلاثة ابن عمه ، بسبب منافستهما على سيادة عشيرتهما ، وقد احتكما إلى هَرِم بن قُطبة الفزارى ، فسوّى بينهما — كما مر بنا — فى عبارته المأثورة إذ قال لهما : « أنتما كركبتى البعير الأدْرَم (الفحل) تقعان إلى الأرض معاً » . وقد تقدم أن الأعشى كان ممن وقفوا فى صف عامر ضد علقمة . وقد وفد عامر على الرسول صلى الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة ، غير أن الله لم يوفقه للإسلام ، فمضى على وجهه ، والرسول غضبان عليه ، ولم يلبث أن مات بالطاعون عن اثنتين وستين سنة .

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم فارس احتفظت به ذاكرة العرب فى أجيالهم التالية إلى يومنا الحاضر هو عنترة بن شداد [1] (وقيل ابن عمرو بن شداد) العَبْسىّ ، وكان أبوه من أشراف عبس ، أما أمه فكانت حبشية يقال لها زبيبة ، وقد ورث عنها سواده ، ولذلك كان يعد من أغربة العرب ، كما ورث عنها تشقق شفتيه ، ولذلك كان يقال له عنترة الفَلْحاء . وكان من عادة العرب فى الجاهلية إذا استولدوا الإماء أن يسترقّوا أبناءهم ولا يلحقوهم بأنسابهم إلا إذا أظهروا نجابة وشجاعة . ومن ثم لم يعترف شداد بعنترة ابناً له إلا بعد ما أبداه من بسالة فى حروب داحس والغبراء ، وقد ظل يذكر هذا الجرح الذى أصابه فى الصميم ، وفى ذلك يقول [2] :

إنى امرؤٌ من خير عَبْس مَنْصِباً ... شَطْرى ، وأَحْمى سائرى بالمُنْصُلِ [3]

وإذا الكتيبةُ أحجمتْ وتلاحظتْ ... أُلفِيتُ خيْرًا من مُعَمٍّ مُخْوَلِ [4]

وواضح أنه يشير إلى كرم أصله الأبوى أو شطره الأول ، أما شطره الثانى من جهة أمه فتنوب عنه شجاعته واقتحامه للحروب ، حتى غدا فى قومه خيراً ممن

---

(١) انظر فى عنترة الأغانى (طبعة دار الكتب) ٨/٢٣٧ والشعر والشعراء ١/٢٠٤ وما بعدها والخزانة ١/٥٩ وراجع ديوانه برواية الأصمعى ، فى مخطوطة الشنقيطى « شرح الدواوين الستة » بدار الكتب المصرية . وقد طبع مصطفى السقا نص المخطوطة بشرح مختصر فى مجموعة « مختار الشعر الجاهلى » . وطبع الديوان طبعات أخرى فى بيروت والقاهرة وليدن .

(٢) مختار الشعر الجاهلى ص ٣٨٨ .

(٣) منصباً : أصلا . المنصل : السيف .

(٤) تلاحظت : نظرت من يقدم على العدو .

عمه وخاله من سادتهم ، إذ لا يغنى القبيلة أحد غناءه ولا يذود عن حماها ذياده ، ويصور لنا فى نفس القصيدة شجاعته وجرأته تصويراً باهراً إذ يقول :

بكَرت تخوِّفنى الحُتوفَ كأننى أصبحتُ عن غَرض الحتوفِ بِمَعْزِلِ[1]
فأجبتُها إن المنيَّة مَنْهَلٌ لا بد أن أُسْقَى بكأْسِ المنْهَلِ[2]
فاقْنَىْ حياءَكِ لا أبالكِ واعلمى أنى امرؤٌ سأموت إن لم أُقْتَلِ[3]
إن المنيَّةَ لو تمثَّل مُثِّلَتْ مِثْلى إذا نزلوا بِضَنْكِ المنزلِ[4]
والخيلُ ساهمةُ الوجوه كأنما تُسْقَى فوارسُها نقِيعَ الحَنْظلِ[5]

فهو لا يستمع إلى تخويف صاحبته له مما قد يلقاه من المكاره والمتالف بسبب تهافته على الحروب ، بل إنه ليصمّ أذنيه عن ندائها قائلا لها إن المنية مورد كل إنسان ولابد أن أموت ، فليكن موتى شريفاً فى ميدان الحروب . ويدعوها أن تصون حياءها ، فهو ميت على كل حال ، وخير له أن يموت مناضلا عن قومه مدافعاً عن نسائهم وأطفالهم وضعفائهم . ولا يلبث إحساسه ببطولته أن يتضخم فى نفسه ، فإذا هو يتصور أن المنية لو خلقت فى مثال لكانت فى مثل صورته وخلقته ، وهو يقتحم الصفوف ، والخيل ساهمة من هول الحرب ، والفرسان كالحة وجوههم كأنما يشربون من نقيع الحنظل .

وقد طارت شهرة عنترة بالفروسية والشجاعة النادرة منذ الجاهلية ، وما زالت ذكراه عالقة بأذهان العرب إلى اليوم ، فهو مثلهم الأعلى فى البسالة والبطولة الحربية ، وقد اتُّخذت من أخباره نواةٌ للملحمة المعروفة باسمه والتى يمكن أن تعد إلياذةَ العرب ، وهو فيها يحارب فى الجزيرة العربية وخارجها فى الحبشة وإيران وبلاد الروم والفرنج وشمال إفريقية والأندلس ، وينازل الصليبيين ، وبذلك كانت هذه القصة أو السيرة تلخص تاريخ العرب وملحمة فروسيتهم فى الجاهلية وفى الفتوح الإسلامية وبعد الفتوح فى حروبهم مع الروم والصليبيين فى الشرق والغرب .

ونحن لا نُعْنَى الآن بعنترة الأسطورة ، إنما نعنى بعنترة الفارس الجاهلى الذى

---

(١) الحتوف : المتالف .
(٢) منهل : مورد .
(٣) اقنى : احفظى وصونى .
(٤) الضنك : الضيق .
(٥) ساهمة : متغيرة .

دوّخ الأقران والأبطال فى حروب داحس والغبراء ، وبذلك غسل مذمة ولادته ولونه وفلَحَ شفتيه ، والذى لاشك فيه أنه كان على خلق عظيم وأنه كان يجمع إلى فروسيته المادية فروسية معنوية أو خلقية .

ولا بد أن نلاحظ بصفة عامة أن الفروسية الجاهلية بعثت فى نفوس أصحابها ضرباً من التسامى والإحساس بالمروءة الكاملة فإذا هم يتغنون دائماً بمجموعة من الفضائل والخصال الحميدة ، واقرأ فيهم فستراهم يتحدثون عن كرمهم الفياض ووفائهم وحلمهم وأنفتهم وعزتهم وصبرهم على الشدائد وتحمل المشاق وحفاظهم على العهد وحماية الجار . وهو جانب واضح فى أشعار عنترة ، ونظن ظناً أنه نمّاه عنده ما قصه الرواة من أنه طلب عبْلة من عمه مالك فأباها عليه لسواده ، ولأنه ابن أمة ، وقد ظل يتغنى بها طوال حياته تغنى المحب المحروم ، وهو تغن نستشف فيه غير قليل من الإحساس بالحزن واليأس. ومن ثَمّ كان يمكن أن يُعَدّ أباً لشعر الحب العذرى عند العرب ، كما يعد فعلا أباً للفروسية العربية بخصالها وخلالها النبيلة السامية التى استرعت أنظار الصليبيين ، فاتخذوا منها مثالا لفروسيتهم وما انطوى فيها من حب عُذْرى[1] .

وَرَدّدِ البَصَر فى أشعار عنترة فستجده يأسر لبَّك بمثله الخلقية الرفيعة ، فهو مع فروسيته وبذله لنفسه فى سبيل قومه سمح السجايا سهل المخالطة والمعاشرة لا يبغى على غيره ولا يحتمل البغى ولا يظلم ولكنه لا يستكين للظلم ، فإن ظُلم تحوّل كالإعصار العاصف حتى يأتى على ظالمه . وقد يشرب الخمر ولكنها لا تفسد مروءته ، وإذا دعاه داعى المكرمات لبّى باذلا كل ما يملك عن طيب نفس ، يقول ــ فى معلقته ــ مخاطباً ابنة عمه عبلة التى شُغف قلبه بها حبّاً :

أَثْنِى علىَّ بما علمتِ فإننى ... سَمْحٌ مُخالقتى إذا لم أُظْلَمِ
فإذا ظُلمتُ فإن ظُلمىَ باسلٌ ... مُرٌّ مَذاقتهُ كطعم العَلْقَمِ[2]

---

(١) انظر قصة الحضارة لول ديورانت الجزء الثالث من المجلد الرابع ، الفصل الخامس الخاص بالفروسية ص ٤٤٦ وما بعدها .

(٢) باسل : كريه .

وإذا شربتُ فإننى مستهلكٌ مالى ، وعِرْضى وافرٌ لمْ يكْلَمِ [١]
وإذا صحوتُ فما أقصِّرعن نَدًى وكما علمتِ شمائلى وتكرُّمى

ويتحدث إليها عن فروسيته وبسالته فى الطعن والنزال وصراع الأقران وكيف ينصبُّ عليهم كالقضاء النازل أو كشواظ من نار يحرق ويُصْمى. ولا يلبث أن يعود إلى الحديث عن كرم نفسه وشرف طباعه ، فيقول :

يخبرْك من شَهد الوقائع أننى أغْشى الوَغَى وأعفُّ عند المْغنَمِ [٢]

فهو يتقدّم فى أهوال الحروب وخطوبها، أما عند الأسلاب فيتردد ويحجم ويتعفف وكأنه ليس صاحبها . إنه لا يحارب من أجل الأسلاب والغنائم ، وإنما يحارب ليكسب لقومه شرف الانتصار . وما يزال يحدثنا فى شعره عن كرامته ، وشعوره القوى بعزته وأنه لا يقبل الضيم والهوان ، يقول فى لاميته [٣] :

ولقد أبِيتُ على الطَّوَى وأَظَلُّه حتى أنال به كريمَ المأْكَلِ

فالجوع حتى الموت خير من الطعام الخبيث الدنىء . وعلى هذه الشاكلة ما تزال تلقانا فى أشعاره معان نبيلة ، وهى معان ارتفعت عنده إلى أروع صورة للنبل الخلقى ، حتى لنراه يرقُّ لأقرانه الذين يسفك دماءهم ، يقول — فى معلقته — وقد أخذه التأثر والانفعال الشديد لبطشه بأحدهم :

فشككتُ بالرُّمْحِ الطويل ثيابَهُ ليس الكريمُ على القَنَا بمحرَّمِ [٤]

فهو يرفع من قدر خصمه ، فيدعوه كريماً ، ويقول إنه مات ميتة الأبطال الشرفاء فى ساحة القتال . وكان يجيش بنفسه إحساس عميق نحو فرسه الذى يعايشه ويعاشره حين تنال منه سيوف أعدائه ورماحهم ، يقول مصوراً آلامه وجروحه الجسدية وقروحه النفسية :

---

(١) يكلم : يجرح .

(٢) الوغى : الحرب .

(٣) مختار الشعر الجاهلى للسقا ص ٣٨٧ ، والطوى : ضمور البطن ، ويريد به الجوع الشديد .

(٤) يريد بالثياب جسده وبدنه .

فازورّ من وَقْــع القَنا بِلبَانهِ وشكا إلىَّ بعَــبْرةٍ وتَحَمْحُمِ [١]
او كان يَدْرِى ما المحاورةُ اشتكى ولكان لو عَلِمَ الكلامَ مُكَلِّمِي

وكأنما فرسه بضْعة من نفسه . وبهذه الرقة والرحمة كان يعامل النساء سبيات وغير سبيات ، فإذا سبي امرأة لم يقربها إلا بعد أداء صداقها إلى أهلها . وكما للسبية حُرْمَتها كذلك لامرأة جاره ، وخاصة إذا كانت زوجة صديق ، فإنه يغض طرفه عنها ولا يُتْبعها قلبه وهواه ، يقول [٢] :

ما استمتُ أنثى نفسَها فى موطنٍ حتى أوفِّىَ مَهْرَها مولاها [٣]
أَغْشَى فتاةَ الحيِّ عند حَلِيلها وإذا غزَا فى الحرب لا أغشاها [٤]
وأغضُّ طَرْفى ما بدتْ لى جارتى حتى يوارِى جــارتى مأْواها
إنى امرؤٌ سَمْحُ الخليقة ماجِدٌ لا أُتْبِعُ النفسَ اللَّجوجَ هواها

وعنترة بهذا كله يصور لنا المروءة الجاهلية الكاملة ، وهى مروءة طرَّزها حب عذرى عفيف لابنة عمه عبلة ، وحقًّا إن هذا الحب إنما شاع فى بوادى نجد فى أثناء العصر الأموى ، بسبب المعانى الروحية التى بثَّها الإسلام فى نفوس العرب ، وهو لم يشع فى الجاهلية ، إنما ظهر عند بعض الأفراد من الفرسان مثل عنترة ، فقد كان يتسامى لا فى خلقه فحسب ، بل أيضاً فى حبه ، وقد جعله ذلك يستشعر غير قليل من الأسى والحزن حين رفض عمه يده ، فلم يزوجه من ابنته . ومضى يحبها حبًّا عنيفاً ، أو قل حبًّا يائساً محروماً فيه طهارة النفس ونقاؤها وفيه الفؤاد الملدَّع الذى يكظم حزنه فتفضحه عبراته ، يقول [٥] :

أفَمن بكاء حمامةٍ فى أيكةٍ ذرفت دموعُك فوق ظهر المِحْمَلِ [٦]

---

(١) ازور : مال وانحرف . اللبان : الصدر . التحمحم . صهيل فيه شبه الأنين
(٢) مختار الشعر الجاهلى ص ٤٠٩ .
(٣) استام المرأة : راودها عن نفسها . الموطن هنا : موطن القتال .
(٤) أغشى : أزور .
(٥) مختار الشعر الجاهلى ٣٨٧ .
(٦) أيكة : شجرة . ذرفت : سالت . المحمل : علاقة السيف .

فالحمام يهيجه كما يهيجه النسيم الذى يهب من صَوْبها ، وكما تهيجه الرسوم والأطلال ، إذ يعبث الحنين بعقله وبقلبه ، يقول فى معلقته :

حُيِّيتَ من طَلَلٍ تقادمَ عهدهُ أَقْوَى وأَقفرَ بعد أمِّ الهَيْثَمِ [1]

ولقد نزلتِ – فلا تَظُنِّى غيره – منى بمنزلة المُحَبِّ المُكْرَم

ودائماً نراه يعبِّر عن ظمأ شديد إلى رؤيتها ، لا لغاية حسية ، ولكن ليمتع طرفه بجمالها . ومن أهم ما يلاحظ عنده أنه يقدم لها فى معلقته وغير معلقته مغامراته الحربية ، فمن أجلها يحارب ويستبسل فى القتال ، ومن أجلها يذود عن قومه ويحمى حماهم ، ومن أجلها يسوق كل مناقبه ومحامده . وكان حين يشتد القتال يلمع خيالها أمام عينيه فيندفع كالثور الهائج ، يقول :

ولقد ذكرتكِ والرِّماحُ نواهلٌ منِّى وبِيضُ الهندِ تَقْطُرُ من دمى

فوَدِدْتُ تقبيل السيوفِ لأنها لمعتْ كبارقِ ثَغْرِك المتبسِّم

فهو دائم الذكر لها فى وغَى الحرب ، حتى حين تعبث به سيوف أعدائه ورماحهم ، إنه من أجلها يحارب ويخاطر ويغامر ، فلا غرو أن يذكرها فى ساعات القتال الحرجة ، فإذا هو يتحول إلى أسد ضار لا يعبس ، بل يبتسم ، لأنها تتراءى له من خلال بريق السيوف ، فيؤمن بأنه منتصر .

وعلى هذا النحو تكاملت الفروسية عند عنترة ، فلم تصبح فروسية حربية فحسب ، بل أصبحت فروسية خلقية سامية ، فيها الحب الطاهر العفيف الذى يجعل من المحبوبة مثلا أعلى والذى يرتفع صاحبه عن الغايات الجسدية الحسية إلى غايات روحية تنم عن صفاء النفس ونقاء القلب ، وفيها التسامى عن الدنايا والنقائص الذى يملأ النفوس بالأنفة والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الدقيق . ويقال إنه قُتل فى غارة له على بنى نَبْهان الطائيين بعد أن تقدمت به السن ، إذ أصابه أحد رماتهم بسهم من سهامه ، ويقال بل مات حتف أنفه [2] .

---

(١) أقوى وأقفر : خلا ممن كان يسكنه . (٢) انظر الأغانى ٨/٢٤٥ .

٢

الصعاليك [١]

الصعلوك فى اللغة الفقير الذى لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة ، ولم تقف هذه اللفظة فى الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة ، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق . ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات : مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدى وقيس بن الحَدَّادية وأبى الطمحان القَيْنى ، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السُّلَيْك بن السُّلَكة وتأبَّط شرًّا والشَّنْفَرى ، وكانوا يَشْركون أمهاتهم فى سوادهم فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب ، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخُلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات ، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً ، وحينئذ قد تكون أفراداً مثل عُرْوَة بن الوَرْد العبسى ، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتى هُذَيل وفَهْم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالى .

وتتردد فى أشعارهم جميعاً صيحات الفقر والجوع ، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحّاء ، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العَدْو حتى ليسمون بالعدَّائين ، وحتى لتضرب الأمثال بهم فى شدة العدو ، فيقال : « أعدى من السُّلَيْك » و « أعدى من الشَّنْفَرى » وتُرْوى عنهم أقاصيص كثيرة فى هذا الجانب ، من ذلك ما يقال عن تأبط شرًّا من أنه « كان أعْدَى ذى رِجْلين وذى ساقين وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء ، فينتقى على نظره أسمنها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته ، حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله [٢] » . وكما كانوا يحسنون العدو كان كثير منهم يحسن ركوب الخيل والإغارة عليها ، ويقال إنه كان للسليك فرس يسمى النَّحّام [٣] ،

---

(١) راجع بحثاً فى الشعراء الصعاليك ليوسف خليف (طبع دار المعارف) .

(٢) الأغانى ١٨ / ٢١٠ .

(٣) ذيل الأمالى للقالى ص ١٨٨ .

وللشنفرى فرس يسمى اليَحْمُوم[١]، أما اسم فرس عروة بن الورد فقَرْمَل[٢]. وكانوا يغيرون أحياناً فرادى وأحياناً فى جماعات .

وكانت أكثر المناطق التى يغيرون عليها مناطق الخصب، وكانوا يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة إلى مكة ، ومعنى ذلك أنهم كانوا ينتشرون حولها فى جبال السَّراة كما كانوا ينتشرون بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية فى كل هذه الجهات يكثر هؤلاء الذؤبان من قطّاع الطرق وقراصنة الصحراء . وهم فى أشعارهم يتغنون بمغامراتهم ونراهم فى أثناء ذلك يتمدحون بالكرم كما نرى فيهم كثيراً من البر بالأقارب والأهل ، وأيضاً فإننا نحس عندهم غير قليل من الترفع والشعور بالكرامة فى الحياة ، ويصوِّر لنا ذلك أبو خِراش الهُذَلِىّ فيقول[٣] :

وإنى لأُثْوِى الجوعَ حتى يملَّنى ... فيذهبَ لم يَدْنَسْ ثيابى ولا جِرْمى[٤]
وأغتبقُ الماءَ القَراحَ فأنتهى ... إذا الزادُ أمسَى للمُزَلَّجِ ذا طعمِ[٥]
أردُّ شُجاعَ البطنِ قد تعلمينه ... وأوثرُ غيرى من عِيالك بالطُّعْمِ
مخافة أن أحْيَا بِرغْمٍ وذلَّةٍ ... وللموتُ خيرٌ من حياةٍ على رَغْمِ

فهو يفتخر لزوجه بأنه يصبر على الجوع ، حتى ينكشف عنه ، دون أن يلحقه فيه ضيم ؛ وإنه ليكفيه الماء القراح بينما يتخم من حوله أشحاء النفوس بالطعام، أما هو فحتى إن وجد الطعام آثر به عياله وأولاده . وكل ذلك يصنعه حتى لا يوصم بعار الذل . وسنرى عما قليل عروة بن الورد يعبِّر عن مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالا عن مثالية عنترة . وكأنما تحولت الصعلكة فى أواخر العصر الجاهلى إلى نظام يشبه نظام الفروسية، وهى حقّاً تقوم على السلب والنهب ، ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون سيداً كريماً ، واقرأ فى صعاليك هذيل من مثل أبى كبير والأعلم وفى السليك وتأبط شرّاً وغيرهم فستجد للصعلوك مثاليته فى الحياة أو على

---

(١) ديوانه المطبوع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٤٠ .
(٢) ديوانه (طبع الجزائر) ص ١٢٠ .
(٣) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب المصرية) ٢/١٢٧ والأغانى ٢١/٤٢ .
(٤) أثوى : أطيل حبسه .
(٥) أغتبق : أشرب عشاء . القراح : الصافى . المزلج : البخيل .

الأقل ستجد من بينهم من يصورون مستوى خلقـًا رفيعاً من البـِرّ ، وإن كان ذلك لا يمنع من أن فريقاً منهم عاش سفّاحاً لا يرعى عهداً ولا ذمة . ونقف قليلا عند أكثرهم دوراناً على الألسنة ، وهم تأبط شرًّا والشنفرى وعروة بن الورد .

أما تأبط شرًّا فمن قبيلة فهم واسمه ثابت [1] بن جابر بن سفيان ويعد فى أغربة العرب ، إذ كان ابن أمة حبشية سوداء ، فورث عنها سوادها ، وقيل بل أمة حرة من فَهْم تسمى أميمة . واختلف القدماء فى تعليل لقبه «تأبط شرًّا» فقيل لقبته به أمه إذ تأبط سيفاً وخرج ، فلما سُئلت عنه قالت : تأبط شرًّا ومضى لوجهه ، وقيل بل سمته أو لقبته بذلك لأنها رأته يتأبط جراباً مليئاً بالأفاعى . وربما كانت قبيلته هى التى لقبته بهذا اللّقب لكثرة ما كان يرتكب من جنايات وجرائر ، أى إنه يحمل دائماً فى أطوائه شرًّا يريد أن ينفذه . ويظهر أن أباه مات وهو صغير ، فتزوجت أمه بأبى كبير الهذلى ، وكان صعلوكاً كبيراً ، فخرَّجه على شاكلته ، وربما كان لسواده وتعيير عشيرته له به وبأنه ابن أمة أثر فى تصعلكه . وكان يرافق الشَّنْفَرى فى كثير من غاراته كما كان يرافقهما صعلوك آخر يسمى عمرو بن برّاق . وليس له ديوان شعر مطبوع ، غير أن له أشعاراً كثيرة منثورة فى كتب الأدب ، وتُرْوَى له مغامرات مختلفة ، وهى مطبوعة بطابع القصص الشعبى ، مما أتاح للانتحال أن يلعب دوراً واسعاً فيما نُسب إليه من أشعار ، فمن ذلك لاميته التى أنشدها أبو تمام فى حماسته يرثى بها خاله والتى تستهل بقوله : «إن بالشِّعْب الذى دون سَلْع» فقد ذكر الرواة أنها مما نحله إياه خلف الأحمر [2] . ويمكن أن نُدْخل فى هذا الباب من الانتحال ما يُرْوَى له من أشعار يقص علينا فيها لقاءه للجنّ أو للغول . وقد روى له صاحب المفضليات قصيدة طويلة جعلها فاتحة كتابه ، وهو يستهلها بالحديث عن الطيف ، ولا يلبث أن يحدثنا عن إحدى غاراته أو مغامراته الفاشلة مع صديقيه الشنفرى وعمرو بن براق على بَجيلة فى الطائف ، إذا أرْصَدُوا لهم كميناً على ماء أوتهم غير أنه وصاحبيه دبروا حيلة بارعة ، نَجوا بها عَدْواً على الأقدام ، ويصور لنا عدوه وشَدَّه السريع حينئذ فيقول :

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى ١٨ / ٢٠٩ والشعر والشعراء ١ / ٢٧١ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ص ١٩ ، ٤٣ والخزانة ١ / ٦٦ .

(٢) انظر تعليق التبريزى على القصيدة فى شرحه لديوان الحماسة .

ليلةَ صاحوا وأَغْرَوْا بى سِراعَهُمُ بالعَيْكَتين لدى مَعْدَى ابنِ برّاقِ[١]

كأنما حثحَثُوا حُصًّا قَوادِمُهُ أو أُمَّ خِشْفٍ بذى شَثٍّ وطُبَّاقِ[٢]

لا شىءَ أسرعُ منى ليس ذا عُذَرٍ وذا جناحٍ بجنْب الرَّيْدِ خَفَّاقِ[٣]

حتى نجوتُ ولما ينزِعوا سلَبِى بِوالهٍ من قَبِيضِ الشَّدِّ غَيْداقِ[٤]

وواضح أنه يذكر كيف فات عَدّائى بجيلة ليلة صاحوا به وأسرعوا من خلفه هو وصاحبه ابن براق ، ويقول إنهم أثاروه حتى غدا أسرع من الظليم والظبية ، وحتى أصبحت الخيل الجياد لا تلحق شأوه ، بل حتى الطير أصبحت تقصر عن عَدْوِه ، وكأنما جُنَّ جنونه. ويمضى فيرسم لنا صورة الصعلوك من أمثاله الذى يقدره ويجله ، قائلا :

لكنما عِوَلِى إن كنتُ ذا عِوَلٍ على بَصِيرٍ بكسبِ الحمدِ سَبَّاقِ[٥]

سبَّاقِ غاياتِ مَجْدٍ فى عشيرتِهِ مُرجِّعِ الصَّوْتِ هدًّا بين أرْفاقِ[٦]

عارى الظَّنابيبِ مُمْتَدٍّ نَواشِرُهُ مِدْلاجِ أدْهَمَ واهى الماء غَسَّاقِ[٧]

حَمَّالِ ألويةٍ شَهَّادِ أنْدِيةٍ قَوّالِ مُحْكَمَةٍ جوّابِ آفاقِ[٨]

فذاك هَمِّى وغَزْوِى أستغيثُ بهِ إذا استغثتَ بضافى الرأس نَعَّاقِ[٩]

---

(١) العيكتان : موضع . معدى : عدو .

(٢) حثحثوا : حركوا وأثاروا . القوادم : ما يلى الرأس من ريش الجناحين . الحص : جمع أحص وهو ما تناثر ريشه وتكسر لسرعته ، يريد بذلك الظليم . الخشف : ولد الظبية . الشث والطباق : من نباتات الصحراء .

(٣) ذا العذر : الفرس . والعذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه . وذا جناح : يريد الطير . الريد : حرف الجبل .

(٤) السلب : ما يسلب فى الحرب . الواله : ذاهب العقل . القبيض : السريع . الشد : العدو . غيداق : واسع .

(٥) العول : الاستغاثة ، وأصله رفع الصوت كالعويل .

(٦) مرجع الصوت : يصيح آمراً ناهياً . أرفاق : رفاق . الهد : الصوت الغليظ .

(٧) عارى الظنابيب : خفيف اللحم ، وأصل الظنبوب عظم الساق . النواشر : عروق ظاهر الذراع . ممتد النواشر كناية عن طول الذراع واكتمال الخلق . الأدهم : الليل . واهى الماء : مطره شديد . غساق : شديد الظلمة.

(٨) المحكمة : الكلمة الفاصلة .

(٩) غزوى هنا : مقصدى . ضافى الرأس : كثير الشعر لا يتعاهده لكثرة غزوه . نعاق : يكثر من الصياح .

فهو إنما يعوّل على هذا الصعلوك المثالى الذى يشركه فى غزواته والذى يتصف بسبقه إلى المحامد فى عشيرته ، كما يتصف بجهارة صوته وزعامته بين الرفاق وبضمور جسمه وقوته وصلابته وجرأته فى اقتحام الليالى المظلمة الممطرة حتى إذا كانت الحرب كان المقدم فيها الذى يحمل لواءها ، وإذا كانت السلم كان ذا رأى صائب يتردد فى مجالس العشيرة وأنديتها . ولا ينسى أن يضيف إلى هذه الخصال خصلة الكرم ، ويجعلها حواراً بينه وبين شخص يعذله على كثرة كرمه وإفراطه فيه ، حتى إنه لا يبقى على شىء لغده ، ويزجره زجراً شديداً ، يقول :

بلْ مَنْ لعَذَّالةٍ خَذَّالةٍ أَشِبٍ ... حَرَّقَ باللوم جِلْدى أىَّ تَحْرَاقِ[1]

يقول أهلكتَ مالا لو قنعتَ بهِ ... من ثوبِ صِدْقٍ ومن بَزٍّ وأعْلاقِ[2]

عاذلتى إن بعضَ اللَّوْم مَعْنَفَةٌ ... وهل متاعٌ وإن أبقيتُه باقِ[3]

ولعل فى هذه الأبيات وما سبقها ما يدل فى وضوح على أن الصعلوك الذى كان يقطع الطريق فى الجاهلية كانت تنعكس عليه أحياناً صفاتُ الفروسية وما بعثت لعصره من سمو فى الأخلاق . وما زال تأبط شرا يقوم بمغامراته حتى قُتل فى إحدى غاراته بمنازل هُذَيْل .

أما الشَّنْفَرَى فكان من عشيرة الإواس[4] بن الحجْر الأزدية اليمنية ، فهو قحطانى النسب ، ويدل اسمه ، ومعناه الغليظ الشفاه[5] ، أن دماء حبشية كانت تجرى فيه من قبل أمه ، فهى أمة حبشية ، وقد ورث عنها سوادها ولذلك عُدَّ فى أغربة العرب . ولا نراه ينشأ فى قبيلة الأزد ، إنما ينشأ فى قبيلة فَهْم ، ويضطرب الرواة فى سبب نزوله مع أمه وأخ له بها ، وربما كان أقرب ما يروونه من ذلك أن قبيلته قتلت أباه ، فتحولت أمه عنها إلى بنى فهم ، ومما يرجح ذلك أننا نجده يخص بغزواته بنى سلامان الأزديين معلناً فى أشعاره أنه يقتصُّ لنفسه منهم . ويقال

(١) العذالة : كثير العذل . الخزالة : كثير الخذلان لصاحبه . أشب : معترض . يريد من يعينى على هذا العذالة .

(٢) ثوب صدق : ضد ثوب سوء . البز : الثياب والسلاح . الأعلاق : كرائم المال .

(٣) معنفة : عنف .

(٤) انظر فى ترجمة الشنفرى الأغانى (طبع الساسى) ٢١/٨٧ وخزانة الأدب ٢/١٤ وما بعدها وشرح المفضليات لابن الأنبارى ١٩٥ وما بعدها وذيل الأمالى ص ٢٠٨ وما بعدها ، والشعراء الصعاليك ص ٣٢٨ .

(٥) خزانة الأدب ٢/١٦ .

إن الذى روَّضه على الصعلكة وقطع الطرق تأبط شرا ، فكان يغير معه ، حتى صار لا يُقام لسبيله[1]. وما زال يغير على الأزد ، وينكل بها ، حتى قَتَل ، فيما يقص الرواة ، تسعة وتسعين . انتقاماً لأبيه . وأخيراً يرصدون له كميناً ، فيقع فيه ، ويمثّلون به تمثيلا فظيعاً ، يقطّعون فيه جسده تقطيعاً ، ويرمون به للسباع . ويقال إن رجلا عثر بجمجمته ، فعقرته ، فمات . وبذلك يبلغ قتلاه من الأزد مائة . وخيوط الأسطورة واضحة فى مقتل الرجل المكمل للمائة ، وتلعب هذه الخيوط فى أخباره جميعاً كما تلعب فى أخبار تأبط شرا رفيقه .

وللشنفرى ديوان شعر صغير طُبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر بمجموعة الطرائف الأدبية ، ومما اشتهر له لامية العرب ، وهى مما نُحل عليه ، فقد نصَّ الرواة على أنها من صنع خلف الأحمر[2]، وقد أحكم صناعتها وساق فيها اسم موضع فى جنوبى اليمن هو إحاظة ليدل على أن قائلها كان يتجول فى هذه الأنحاء ، وحتى يكون ذلك أدعى إلى تصديقها والثقة بها . وهى تصور تصويراً حيّاً حياة الصعلوك الجاهلى وروحه البدوية الوحشية . وبجانب هذه القصيدة المنتحلة نجد له قصيدته التائية الطويلة التى رواها المفضل فى مفضلياته ، ثم مجموعة من المقطوعات ، ويبدو فى أشعاره على شاكلة تأبط شرا هزيلا نحيلا يلبس ثياباً بالية ونعالا ممزقة . ولو لم يصلنا إلا تائيته لكان ذلك كافياً فى تصور حياته ومغامراته ، وقد سبق أن تمثلنا بأبيات منها فى وصف زوجته أميمة نعتها فيها بأخلاقية مثالية ممتازة ، ثم مضى يصف غارة أغارها على بنى سلامان فى جمع من رفاقه الصعاليك وعلى رأسهم تأبط شرا ، ونراه فى مستهل وصفه يحدثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذى سلكوه ، وأنهم كانوا راجلين ، يقتحمون الصعاب ، غير هيابين ولا وَجِلين ، يقول :

وباضعة حُمْرِ القِسِيِّ بعثتُها ... ومَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً ويُشَمَّتِ[3]
خرجنا من الوادى الذى بين مِشْعَلٍ ... وبين الجَبَا ، هيهات ، أنشأتُ سُرْبَتِى[4]

---

(١) شرح المفضليات ص ١٩٦ وما بعدها .
(٢) الأمالى للقالى (الطبعة الأولى) ١/١٥٧ .
(٣) باضعة : قاطعة . ويريد بها رفاقه الصعاليك ، بعثتها : غزوت بها . حمر القسى ، يقال إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس . يشمت : يخيب ويفشل .
(٤) مشعل وإلجبا : موضعان . السربة : الجماعة . أنشأت : أظهرت من مكان بعيد .

أَمَشِّى على الأرض التى لن تضرُّنى لأَنْكِيَ قوماً أو أصادف حُمَّتِى[١]

أَمَشِّى على أَيْنِ الغَزاةِ وبُعْدها يقرِّبنى منها رَوَاحِى وغُدْوَتى[٢]

وهو يعترف فى البيت الأول بأنهم قد يرجعون خائبين أو مهزومين من غاراتهم أو غزواتهم ، ولكن ذلك لا يردهم عن الغزو ، بل يدفعهم دفعاً إليه ، فهم لا يتهيبون الموت ولا وعثاء الطريق . ويصور لنا كيف كان تأبط شرا يحمل زادهم ويقتِّر عليهم فى الطعام خيفة أن تطول الغَزاة بهم فيموتوا جوعاً ، ويقص علينا ذلك فى مداعبة طريفة له ، إذ يدعوه أمهم ، وهو وأصحابه عيالها ، يقول :

وأُمِّ عيالٍ قد شَهِدْتُ تَقُوتهم إذا أَطْعَمَتْهُمْ أَوْتحَتْ وأَقلَّتِ[٣]

تخاف علينا العيْلَ إنْ هى أكثرتْ ونحن جياعٌ ، أَىَّ آلٍ تَأَلَّتِ[٤]

مُصَعْلِكَةٌ لا يَقْصُر السِّتْرُ دونها ولا تُرْتَجَى للبَيْتِ إن لم تُبَيِّتِ[٥]

لها وَفْضَةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفاً إذا آنَسَتْ أولى العَدِىِّ اقْشَعَرَّتِ[٦]

وتأتى العَدِىَّ بارزا نِصْفُ ساقها تَجُولُ كعَيْرِ العانةِ المتلفِّتِ[٧]

إذا فزعوا طارتْ بأَبيضَ صارمٍ ورامتْ بما فى جَفْرِها ثم سَلَّتِ[٨]

حُسامٍ كلون المِلْحِ صافٍ حَدِيدُهُ جُرازٍ كأَقْطاعِ الغَدِيرِ المنعَّتِ[٩]

تراها كأَذْنابِ الحَسِيلِ صَوَادِرًا وقد نَهِلَتْ من الدِّماءِ وعَلَّتِ[١٠]

---

(١) لن تضرنى : لن يخيفنى بها شىء . أنكى العدو : أصيب منه . الحمة : المنية .

(٢) أمشى : إشارة إلى غزوه على رجليه . أين : تعب .

(٣) أم عيال هنا : تأبط شراً . تقوتهم : تطعمهم . أوتحت : أقلت وقترت .

(٤) العيل : الفقر وفقد الطعام . أى آل تألت : أى سياسة ساست من آله بمعنى ساسه .

(٥) مصعلكة بكسر اللام : صاحبة صعاليك. لا يقصر الستر دونها : لا تغطى أمرها .

(٦) وفضة : جعبة . سيحف : سهم عريض النصل . العدى : العداءون أو الرجالة . اقشعرت : تهيأت للقتال .

(٧) بارزاً نصف ساقها : كناية عن الجد فى الأمر . العير : حمار الوحش . العانة : جماعة أتنه الوحشية .

(٨) فزعوا : دهمهم محاربون وتهيأوا لقتالهم . أبيض صارم : سيف قاطع . الجفر : الجعبة . رامت بما فيه أى بسهامه . سلت السيف : شهرته .

(٩) جراز : قاطع . أقطاع الغدير : قطع الماء فيه . شبه السيف بها فى اللمعان والبريق .

(١٠) الحسيل : جمع حسيلة . وهى أولاد البقر . والنهل : الشرب الأول والعلل : الشرب المكرر .

وواضح أنه ينتقل من تصوير شحّ هذه الأم بالطعام إلى بيان أنها ليست أمًّا حقيقية ، فهى صاحبة صعاليك ، لا تتخذ الستر ولا تبيت فى الخيام، ولها جعبة سهام ، تناضل بها عن أصحابها حين يفجؤهم بعض الأعداء ، وما تزال ترعاهم رعاية حمار الوحش لأتنه ، حتى إذا دهمهم غزاة أو مغيرون بادرت إلى سهامها ، ثم نازلتهم هى ومن معها بسيوفهم القاطعة اللامعة التى تنهل من دمائهم وتعل ، فترى وكأنها أذناب الخيل ، وهى أولاد البقر المستأنسة . ووقف لايل فى ترجمته للمفضليات عند هذا التشبيه واتخذ منه دليلا على أصل الشنفرى وأنه يمنى حقًّا ، لأن البقر المستأنس كما يقول لم يعرف عند العرب قديماً إلا فى بلاد اليمن[1] .

ونمضى مع الشنفرى فى القصيدة فإذا هو يحدثنا عن أهداف غارته وأنه كان يقصد بها بنى سلامان ، حتى يأخذ بثأره لأبيه ويشفى حقده وغليله ، يقول :

جَزَيْنا سلامانَ بنَ مُفْرِجَ قَرْضَها ... بما قَدَّمت أيديهمُ وأزلَّت[2]

وهُنِّئَ بى قومٌ وما إن هَنَأْتُهمْ ... وأصبحتُ فى قومٍ وليسوا بمَنْبَتى[3]

شفينا بعبد الله بعضَ غَليلِنا ... وعوفٍ لدى المعْدَى أوانَ استهلَّتِ[4]

وإنى لحُلْوٌ إنْ أُريدتْ حلاوتى ... ومُرٌّ إذا نَفْسُ العَزُوفِ استمرَّتِ[5]

وهو يصرح بأنه جزَى بنى سلامان بما قدمت أيديهم، ويأسى أن يكونوا قومه ولا ينتفعوا به وببأسه ، وأن يقعد لهم ويقعدوا له ، لما بينه وبينهم من ثأر قديم ، ويحدثنا أنه شفى بعض غليله بقتله لرجلين منهم هما عبد الله وعوف ، ويقول إنه حلو لأصدقائه مر على أعدائه كأنه الحنظل . وهكذا كانت حياته غارات ومغامرات ، حتى أصاب أعداؤه منه مقتلا فقتلوه .

وثالث صعاليك الجاهلية المشهورين عروة بن الوَرْد العبسى[6]، وكان أبوه

---

(١) راجع ترجمة المفضليات للايل ٢/٦٨

(٢) أزلت : قدمت .

(٣) معنى الشطر الأول أن الأزد يهنئون به وبشجاعته لأنه منهم وفى الوقت نفسه هو لا يهنؤهم لأنهم لا ينتفعون به. وهو يشير فى وضوح إلى أنه ينزل فى بنى فهم وليس منهم .

(٤) الغليل فى مثله حرارة العطش ، وهو هنا العطش إلى النيل . المعدى : موضع العدو ، والمراد ساحة المعركة ، أوان استهلت : فى الوقت الذى ارتفعت فيه الأصوات للحرب .

(٥) العزوف : المنصرف عن الشىء . استمرت : من المرارة .

(٦) راجع فى ترجمة عروة الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/٧٣ والشعر والشعراء ٢/٦٥٧ والخزانة ٤/١٩٤ والشعراء الصعاليك ص٣٢٠.

من شجعان قبيلته وأشرافهم ، ومن ثَمَّ كان له دور بارز فى حرب داحس والغبراء[١] . أما أمه فكانت من نَهْد من قضاعة ، وهى عشيرة وضيعة لم تعرف بشرف ولا خطر ، فآذى ذلك نفسه ، إذ أحس فى أعماقه من قِبَلها بعار لا يُمْحى ، يقول[٢] :

وما بىَ من عارٍ إخالُ علمتُه   سوى أن أخوالى ـ إذا نُسبوا ـ نَهْدُ

فهى عاره ، الذى حلَّت البلية عليه منه ، والذى دفعه دفعًا إلى الثورة على الأغنياء ، وهى ثورة كانت مهذبة ، إذ لم يتحول إلى سافك دماء ولا إلى متشرد يرود مجاهل الصحراء ، فقبيلته لم تخلعه ، بل ظل ينزل فيها مرموق الجانب لسيرة كانت تروع معاصريه ومن جاءوا بعدهم ، إذ اتخذ من صعلكته بابًا من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعى بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها ، ومن أجل ذلك لُقِّب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم وضاقت بهم الدنيا . وفى الأغانى « كان عروة بن الورد ، إذا أصابت الناس سنة (أزمة جدب) شديدة وتركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته فى الشدة ، ثم يَحْفر لهم الأسراب ، ويَكْنُفُ عليهم الكُنُفَ (الحظائر) ويكْسبهم . ومن قَوِىَ منهم ــ إما مريضٌ يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته ــ خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيباً . حتى إذا أخصب الناس وألْبَنُوا وذهبت السنة ألحق كلَّ إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سمى عروة الصعاليك[٣] » . وفى خبر آخر أن عبساً كانت إذا أجدبت أتى ناس منها ممن أصابهم جوع شديد وبؤس فجلسوا أمام بيت عروة ، حتى إذا أبصروا به صرخوا ، وقالوا أيا أبا الصعاليك أغثنا ، فكان يرق لهم ويخرج بهم فيصيب معاشهم[٤] .

وعروة بذلك كله يعبر عن نفس كبيرة ، فهو لا يغزو للغزو والنهب والسلب كالشَّنْفَرى وتأبط شرا ، وإنما يغزو ليعين الهُلاَّك والفقراء والمرضى والمستضعفين من قبيلته ، والطريف أنه لم يكن يُغير على كريم يبذل ماله للناس ، بل كان يتخير

---

(١) أغانى ٣/٨٨ .

(٢) ديوانه ص ١٥٧ .

(٣) أغانى ٣/٧٨ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/٦٥٧ .

(٤) أغانى ٣/٨١ .

لغارته من عُرفوا بالشح والبخل ومن لا يمدون يد العون للمحتاج فى قبائلهم ، فلا يرعون ضعفاً ولا قرابة ولا حقاً من حقوق أقوامهم[١] . وبذلك كله تصبح الصعلكة عنده ضرباً من ضروب النبل الخلقى ، وكأنها أصبحت صِنْواً للفروسية ، بل لعلها تتقدمها فى هذه الناحية من التضامن الاجتماعى بين الصعلوك والمعوزين فى قبيلته . وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشىء على من يرعاهم من صعاليكه ، فلهم مثل حظه غزوا معه أو قعد بهم المرض أو الضعف . وهو يضرب بذلك مثلا رفيعاً فى الرحمة والشفقة والبذل والإيثار .

ولعروة ديوان برواية ابن السكيت ، طُبع مراراً ، فى جوتنجن والجزائر والقاهرة وبيروت ، وتردَّد أشعاره فيه هذه المعانى الكريمة التى قدمناها ، وهى معان جعلت معاصريه ومن جاءوا بعدهم يعجبون به إعجاباً شديداً ، فقد كانت قبيلته تأتمّ به فى خلاله وخصاله ، وكان معاوية يقول : « لو كان لعروة بن الوَرْد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم[٢] » أما عبد الملك بن مروان فكان يقول : « من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد »[٣] وكان يقول أيضاً : ما يسرُّنى أن أحداً من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلا عروة بن الورد لقوله :

إنى امرؤٌ عافى إنائىَ شِرْكةٌ ... وأنت امرؤٌ عافى إنائِك واحدُ[٤]

أتهزأ منى أن سمنتَ وأن ترى ... بجسمى شحوبَ الحق ، والحقُّ جاهدُ

أفرِّق جِسْمى فى جسوم كثيرةٍ ... وأحْسُو قَراحَ الماء ، والماءُ بارد[٥]

وعروة يعبِّر عن معنى إنسانى رفيع ، إذ تعرَّض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مُضْنًى هزيل شاحب اللون ، فقال له : إننى يشركنى كثيرون من العفاة والسائلين ذوى الحاجة فى إنائى أو طعامى ، أما أنت فلا يشركك أحد ، ولذلك سمنت أما أنا فأصبحت ضامراً نحيلا ، وما شحوب وجهى إلا أثر من آثار نهوضى بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين ، فلست أنا الخليق بالهزؤ والسخرية ، إنما الخليق بذلك السمين

---

(١) أغانى ٣/٨١ .
(٢) أغانى ٣/٧٣ .
(٣) أغانى ٣/٧٤ .
(٤) العافى : طالب المعروف . ويريد بقوله : عافى إنائك واحد أنه يأكل وحده .
(٥) حسا الماء : شربه شيئاً بعد شىء . القراح : الخالص الذى لا يخالطه لبن ولا غيره .

البَطِين . وما لبث أن قال : إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبارة أدق يقسم جسمه فى جسومهم ، بل كثيراً ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفياً بشرب الماء البارد ، على حين يعصف الشتاء بزمهريره . والذى لا ريب فيه أنه طمح إلى مثل نبيل فى البِرّ والإيثار ودفع غوائل البؤس والشقاء عن البؤساء والضعفاء . ونحن نقف عند قصيدة أنشدها له الأصمعى فى أصمعياته[1] ، وهى بذلك من أوثق شعره وأصدقه . وهو يستهلها بتوجيه الخطاب إلى امرأته سلمى التى تلومه على كثرة مخاطراته ومغامراته فى الغزوات والغارات ، وقد ردّ عليها بأنه يبغى حسن الأحدوثة وبقاءها ، وأنه إنما يرمى بنفسه فى المهالك من أجلها ، حتّى يغنيها وحتّى لا تشعر بالحاجة من بعده أو بالذل والهوان ، وهى تماريه شفقة عليه :

تقول : لكَ الويلاتُ هل أنتَ تاركٌ ... ضُبُوءًا بِرَجْلٍ تارة وبِمَنْسِرِ[2]

فهى تقول له إنك لن تنتهى عن غاراتك بالصعاليك من الراجلين تارة ومن الفرسان تارة ثانية ، وحرى بك أن تكف عن ذلك ، حتّى لا تلقى حتفك ، ويردّ عليها :

أَبَى الخَفْضَ من يَغْشاكِ من ذى قرابةٍ ... ومن كلِّ سوداءِ المعاصمِ تَعْترى[3]
ومُسْتَهْنِىءٍ ، زيدٌ أبوه ، فلا أرى ... له مَدْفَعاً ، فاقْنَىْ حياءَكِ واصْبِرِى[4]

فهو لا يستطيع القعود عن الغزو كما تريد زوجه ، لما عليه من واجبات وحقوق لأقربائه المحتاجين من قبيلته ، ونسائها المعوزات ، والعُفاة ، طلّاب العطاء من الضعفاء ، فهو إنما يغزو من أجل الوفاء بحقوق هؤلاء جميعاً . ويعرض عليها صورتين للصعلوك ، صورة رديئة ، وصورة جيدة ، أما الصورة الأولى ففيها يتراءى الصعلوك خاملا ، حسبه أن ينال أكلة من فتات مائدة ، لا يهمه أهله ولا عياله

---

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ٣٥ .

(٢) ضبوء : غزو . رجل : جمع راجل ضد راكب . المنسر كمجلس ومنبر : الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين .

(٣) الخفض : الدعة ولين العيش . ويريد بسوداء المعاصم التى أجهدها الجوع والهزال . تعترى : تغشى .

(٤) مستهنئ : طالب للهنء وهو العطاء ، وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه . اقنى حياءك : صونيه واحفظيه .

ولا قوتهم ، يقول :

لَحَى اللهُ صُعْلوكاً إذا جنَّ ليلُه ... مُصَافِى المُشاشِ آلِفاً كلَّ مَجْزَرِ (١)
يَعُدُّ الغِنى من دهره كلَّ ليلــةٍ ... أصاب قِراها من صديق ميسَّرِ (٢)
ينامُ عِشــاءً ثم يُصْبح قاعِداً ... يَحُثُّ الحصَا عن جنْبِه المتعفِّرِ (٣)
يُعين نســاءَ الحيِّ ما يستعنَّه ... فيُضْحى طَلِيحاً كالبعير المحسَّرِ (٤)

وواضح أنه ينعته بأنه ضعيف الهمة فحسبه لقمة تشبعه ، مما يتساقط من فضلات الموسرين ، وإنه لينام ملء جفونه فليس هناك ما يشغله ، وحتى هو فى النهار ليس هناك ما يعمله سوى خدمة النساء ، فهو ذليل مهين يعيش عالة على مجتمعه . ومثل هذا الصعلوك جدير بكل ملامة ، لأنه يَحْيَـا حياة وضيعة . أما الصعلوك الآخر الشريف فهو جدير بكل ثناء وتشجيع من الزوجة وغير الزوجة ، يقول فى وصفه :

ولله صعلوكٌ صحيفةُ وجهــهِ ... كضَوْءِ شِهابِ القابسِ المتنوِّرِ (٥)
مُطِــلاًّ على أعدائهِ يَزْجُرونه ... بساحتهم زَجْرَ المَنِيحِ المشهَّرِ (٦)
وإن بَعُدُوا لا يأمنون اقترابَهُ ... تشوُّفَ أهلِ الغائبِ المتنظَّرِ (٧)
فذلك إن يَلْقَ المنيَّةَ يلْقَهــا ... حَميدًا ، وإن يَسْتَغْنِ يوماً فأَجْدِرِ

فهذا هو الصعلوك الذى يعجب به عروة ، صعلوك وجههمشرق بأعماله المجيدة ، لا يزال يطل على أعدائه ويشرف عليهم ، فيظفر منهم بكل ما يريد ، على الرغم من صياحهم به وزجرهم له . وهم مهما بعدوا لا يأمنون غزوه ، بل إنهم لينتظرونه

---

(١) لحى : قبح ولعن . المشاش : رءوس العظام اللينة . المجزر : موضع الجزر .
(٢) قراها : طعامها . ميسر : غنى كثرت إبله .
(٣) يحث : يحرك .
(٤) الطليح : المعيى ، ومثله المحسر .
(٥) صحيفة الوجه : بشرته . الشهاب : شعلة ساطعة من النار . القابس : الذى يقبس النار أو يأخذها . المتنور : المضيء .
(٦) مطلا : مشرفاً . يزجرونه : يصيحون به كما يزجر القدح إذا ضرب . المنيح : قدح سريع الخروج ولا نصيب له . المشهر : المشهور .
(٧) تشوف : تطلع . المتنظر : المنتظر قدومه .

انتظار أهل الغائب له ، علماً منهم بأنه لابد راجع إليهم ومصيب منهم . ويقول إن مثل هذا الصعلوك المغامر الجرىء إن يمت تظل ذكراه خالدة لمحامده ومناقبه . ويمضى فيحدثنا عن غزواته وغاياتها ، يقول :

أيهلك مُعْتَمٌ وزيدٌ ولم أَقُمْ على نَدَبٍ يوماًولى نفسُ مُخْطِرِ (١)
ستُفْزِعُ بعد اليأْسِ منْ لا يخافنا كواسِعُ فى أُخْرَى السَّوام المُنفَّرِ (٢)
نُطاعِنُ عنها أولَ القوم بالقَنَا وبيضٍ خِفافٍ وقْعُهُنَّ مُشَهَّرُ (٣)
ويوماً على غاراتِ نَجْدٍ وأهلِه ويوماً بأَرْضٍ ذات شَثٍّ وعَرْعَرِ (٤)
يُريح علىَّ الليلُ أضيافَ ماجدٍ كريمٍ ومالى سارحاً مالُ مُقْتِرِ (٥).

وهو فى أول هذه الأبيات يستنكر أن تهلك عشيرتا معتم وزيد ، وهو قاعد فى الحى ، لا يخاطر بنفسه من أجلهما فذلك عار ما بعده عار . لقد خُلق لرعاية الضعفاء والهلاَّك من قبيلته ، وهو لذلك لابد مقتحم مع رفاقه من الصعاليك الفرسان حِمَى بعض القبائل ليسوقوا منها ما يشاءون من الإبل السائمة ، وهم يهجمون تارة فى الحجاز وتارة فى نجد . وكل ذلك حتى يغنم ما يقدِّمه لضيفانه ، وكم يغنم ! إلا أنه لا يُبْقى على شىء فى يده ، فماله مال مقتر أو فقير مقل .

والحق أن عروة كان صعلوكاً شريفاً ، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة وأن يجعلها ضرباً من ضروب السيادة والمروءة ، إذ كان يستشعر فى قوة فكرة التضامن الاجتماعى وما يطوى فيها من إيثار وبِرٍّ بالفقراء ، فهو لا يسعى لنفسه فحسب ، وإنما يسعى قبل كل شىء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء .

---

(١) معتم وزيد : بطنان من عبس . ندب : خطر .

(٢) كواسع : خيل تطرد إبلا وتكسعها . السوام : الإبل السائمة . أخرى : آخر . المنفر : المذعور .

(٣) بيض : سيوف . وفى البيت إقواء . ورواية الديوان : ذات لون مشهر ، ولو صحت لم يكن فى البيت إقواء .

(٤) الشث والعرعر : من أشجار البادية .

(٥) يريح : يرد . ويقصد بالماجد الكريم نفسه ، كما يقصد بماله إبله . سارحاً : سائماً فى المرعى . مقتر : فقير مقل .

٣

شعراء آخرون

مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن جماعات من اليهود نزلت فى أواخر القرن الأول للميلاد وأوائل الثانى بالمدينة والواحات المنثورة فى شماليها بالحجاز مثل فدَك وخَيْبر ووادى القُرَى وتَيْماء ، واضطرتهم مواطنهم الجديدة إلى تعلم العربية، وإن ظلوا على دينهم ، ومما يلفت النظر أنهم لم يتركوا أى أثر مكتوب ، وقد عنى هؤلاء اليهود بالزراعة والصناعات اليدوية . وأخبارهم فى الجاهلية توحى بأن العرب لم يأمنوهم ، إذ كانوا يعدونهم من أعدائهم ، وكانوا يزدرونهم ازدراء شديداً ، ومَنْ يتابع موقفهم من الإسلام وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم اضطُرّ — لكيدهم له ونقضهم لما بينهم وبينه من عهود موثقة مراراً وتكراراً — إلى إجلائهم عن المدينة ، وأتمّ عمر من بعده هذا الإجلاء عن الجزيرة ، مَنْ يتابع ذلك يعرف أن العرب كانوا فى الجاهلية يجفونهم وينفرون منهم ومن دينهم، فلم يؤثّروا فيهم شيئاً،وعلى العكس نجد اليهود يتعلمون العربية،وينفذبعضهم إلى النَّظْم بها .

على أنه ينبغى أن نحتاط إزاء ما يحدثنا الرواة عن شعرائهم وأشعارهم ، فلا نثق بكل ما رووه فى هذا الصدد ، فقد يكون بعض أبنائهم ممن أسلموا هم الذين زيفوا هذه الأشعار ووضعوها على ألسنتهم . ويظهر أن هذا الوضع قديم فنحن نجد ابن سلام يفتح لشعرائهم فصلا[1] فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » يسوق فيه ذكر ثمانية من شعرائهم وينشد لكل شاعر بعض ما اشتهر له ، وهم على التوالى السموأل بن الغريض بن عادياء، والربيع بن أبى الحُقَيْق، وكعب بن الأشرف ، وشُرَيح بن عمران، وشعية بن الغريض أخو السموأل ، وأبو قيس بن رفاعة، وأبو الذَّيال، ودرهم بن يزيد . ويضيف أبو الفرج فى الأغانى[2] وابن هشام فى السيرة النبوية أسماء أخرى مثل أوس بن دَنِىّ وسِمّاك والغريض بن السموأل .

---

(١) ابن سلام ص ٢٣٥ .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ / ٩٤ وما بعدها.

وأشهرهم جميعاً السموأل[١] صاحب حصن الأبلق بتيماء ، وكان معاصراً لامرئ القيس ، ومرت بنا أسطورته معه وما قالوا من أن امرأ القيس استودعه سلاحه ، فسار إليه الحارث بن أبي شمر الغساني أو الحارث بن ظالم المرى على اختلاف الروايات ، فطلب منه سلاح امرئ القيس ، فأغلق حصنه من دونه ، وتصادف أن كان له ابن خارج الحصن ، فأخذه الحارث ، وهدده إن لم يعطه السلاح قتَل ابنه ، فقال له : اقتله ، فلن أعطيه لك . وبذلك وَفَى على غير عادة قومه ! . وسبق أن قلنا إن هذا من باب الأساطير كما سبق أن انتهينا قصيدة الأعشى التي عرضت لهذه القصة فى إسهاب . ومما نُسب إلى السموأل خطأً القصيدةُ المشهورة :

إذا المرءُ لم يَدْنَس من اللُّؤْم عِرْضُه فكلُّ رداءٍ يَرْتديه جميلُ

وهى لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى[٢] ، وهو شاعر إسلامى . وقد نشر لويس شيخو ديواناً له برواية نفطويه فى مجلة المشرق ببيروت سنة ١٩٠٩ وهى رواية ضعيفة ، إذ تشتمل على مقطوعات كثيرة يتضح فيها أنها منحولة . وروى الأصمعى تائية له[٣] ، لا نكاد نقرأ فيها حتى نحس أثر الصنعة والانتحال ، وهى تستهل بالحديث عن نشأة الإنسان وحياته وبعثه بعد موته على هذا النمط :

نُطْفَةً ما مُنِيتُ يومَ مُنِيتُ أُمِرَتْ أَمْرَها وفيها وُبِيتُ[٤]
كنَّها اللهُ فى مكانٍ خَفِيٍّ وخَفِيٌّ مكانُهـا لو خَفِيتُ
أنا مَيْتٌ إذ ذاك ثُمَّتَ حَيٌّ ثم بعدَ الحياة للبعْثِ مَيْتُ

وصلة هذه الأبيات بما جاء فى القرآن الكريم عن نشأة الإنسان وأنه من نُطْفَةٍ يُمْنَى وأنه يحيى ثم يموت ثم يُبْعَثُ ؛ فهو ينتقل من موت إلى حياة ، وما حياته الثانية فى الآخرة بمستغربة ، إنها تلى موته وحياته الأولى التى تحوَّل إليها من ماء دافق يخرج من بين الصُّلْب والترائب ويقول جَلَّ وعز : ﴿أو لم يَرَ الإنسانُ أنا خلقناه

(١) انظر ترجمته فى الأغانى ١٩/٩٨ .
(٢) شرح المرزوقى على ديوان الحماسة لأبى تمام (طبع لجنة التأليف) ١/١١٠ .
(٣) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ٨٤ وراجع ابن سلام ص ٢٣٦ .
(٤) ما منيت : ما زائدة . ومنيت : قدرت وخلقت . وبيت : هيئت .

من نُطْفَة فإذا هو خَصيم مبين ،وضرب لنا مثلا ونَسِيَ خَلْقَه قال من يُحيي العظام وهى رميم، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) . وترد د هذا المعنى فى الذكر الحكيم هو الذى يجعلنا نشك فى هذه القصيدة ، ونعتقد اعتقاداً أنها نُظمت فى العصور الإسلامية على هَدى التنزيل العزيز ،ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نحس إزاء بعض أبياتها أنها نظمٌ مباشر لبعض آى القرآن الكريم مثل :

ليت شعرى ! وأَشعرنَّ إذا ما قِيــل إقرأْ عُنْوانها وقريتُ[1]

وأصل هذا البيت قوله تعالى فى سورة الإسراء: (وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره فى عُنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) وعلى هذه الشاكلة :

مَيْتَ دَهْرٍ قد كنتُ ثم حييتُ وحيــاتى رَهْنٌ بأَن سأَموتُ

فإن البيت ترديد لمثل قوله سبحانه : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرْجَعُون) .

والحق أن الشعر المضاف إلى يهود الجاهلية من أمثال السموأل ينبغى أن نحذر منه ، وخاصة حين يُعلى من أخلاقهم ويسمو بها ، أو حين يندمج فى بعض ما يردده القرآن الكريم من أفكار ومعان لم تكن معروفة قبله ، ولعله من أجل ذلك لم يرو المفضل الضبى فى مفضلياته شعراً ليهودى ، وكأنه لم يثبت عنده شعر لهم .

وإذا كان العرب الشماليون فى الجاهلية استشعروا البغضاء لليهود فلم يتهود منهم أحد ، فإنهم لم يحسوا نفس الإحساس إزاء النصرانية والنصارى ، وإن ظلوا فى الجملة يحتفظون بدينهم الوثنى ويرون فيه رمز استقلالهم وسيادتهم ، وأنه ينبغى أن لا تتخطفهم الديانات من حولهم . وكانت المسيحية أمامهم فى الشام ديناً للدولة ، ودخل فيها الغساسنة كما قدمنا فى غير هذا الموضع ، وكانت منتشرة بين الآراميين فيما بين النهرين بالعراق ، واعتنقها اللخميون فى أواخر القرن

---

(١) رواية هذا الشطر فى ابن سلام : « قربوها منشورة فقريت» . وقريت : لغة فى قرأت .

السادس للميلاد ، وكانت منتشرة قبل اعتناقهم لها فى جمهور عربى من سكان الحيرة سمى بالعبادیین ، وتشير الكلمة التى سُمّوا بها ، إلى أنهم عباد الله ، وكانوا أخلاطاً من قبائل شتى . وقد انتشرت فى الجنوب بنجران فكانت مركزاً مهمًّا من مراكزها ، كما عُرفت فى بعض القبائل الشمالية والشرقية مثل قضاعة وكلب وطيئ وبكر وتغلب وتنوخ وتميم ، ويزعم اليعقوبى أن نفراً من مكة تنصروا قبيل الإسلام[1] . وكل ذلك معناه أن المسيحية كانت منبثة فى الجزيرة وأن كثيرين من العرب الجاهليين دخلوا فيها ، ويتردد عند شعرائهم الوثنيين ذكر الراهب المسيحى ، وكأنه كان شخصية شعبية معروفة للجميع .

وأشهر شعراء المسيحية فى الجاهلية عَدِىُّ بن زيد[2] شاعر الحيرة المشهور ، وهو من العبادیین ومن بيت شريف من بيوتهم النصرانية ، خدم أبوه فى دواوين الفرس وفى دواوين المناذرة بالحيرة ، ولما أيفع ابنه عدى عُنى بتربيته وتأديبه على الطريقة الفارسية ، فكان يُحسن لغة الفرس كما كان يحسن لغة العرب وتعلّم الرمى بالنشّاب ولعب العجم على الخيل بالصّوالجة . ولم يلبث أن التحق بديوان كسرى أبرويز بن هرمز (٥٩٠ — ٦٢٨ م) وعُهد إليه فيه بالشئون العربية ، ويقال إن كسرى أرسله إلى ملك الروم فى بيزنطة بهدية ، فلما أتاه بها أكرمه . وفى أثناء عودته مرّ بدمشق وهناك انطلق لسانه بالشعر . وعاد إلى الحيرة فوجد أباه قد توفى . وظل مدة متنقلا بين الحيرة والمدائن ، وما نلبث أن نرى الأمور تفسد بينه وبين النعمان أبى قابوس ، مع أنهم يقولون إنه لعب دوراً فى توليته على الحيرة بعد أبيه دون بقية إخوته . ويقال إن الذى أفسد ما بينهما بعض بنى مَرِينا ، إذ زعموا للنعمان أنه يقول إنه عامله وإنه هو الذى ولاه ما ولاّه . فاضطغن عليه النعمان ، وانتهز فرصة مجيئه من لدن كسرى ذات مرة ، وأمر بحبسه ولم يُجْده عنده استعطافه ولا ما نظمه من أشعار فى مديحه . وعلم كسرى فكتب إلى النعمان يأمره

---

(١) تاريخ اليعقوبى (طبعة أوربا) ٢٩٨/١ وراجع المحبر لابن حبيب ص ٧١ ، وابن هشام ٢٣٩/١ .

(٢) انظر فى عدى بن زيد الأغانى (طبعة دار الكتب) ٩٧/٢ وما بعدها ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٧٦/١ وخزانة الأدب ١٨٤/١ وما بعدها والموشح للمرزبانى ص ٧٢ وكتاب لويس شيخو : « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » .

بإطلاقه ، غير أن الرسول وجد عدياً قد مات فى سجنه مختنقاً . وغضب كسرى حين علم بذلك على النعمان غضباً شديداً ، وربما كان هذا الغضب أهم الأسباب فى قضائه عليه كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع .

وأهم الموضوعات التى يدور فيها شعر عَدِىّ الخمرُ ، وذكرُ الموت والفناء، وهو فى الموضوع الأول يعد أباً لشعراء الخمر فى الجاهلية من مثل الأعشى ، ثم لمن ظهروا فى العصور الإسلامية بعد ذلك من مثل الوليد بن يزيد وأبى نواس. وفى أخبار الوليد أنه كان من ندمائه القاسم بن الطويل العبادى ، وكان أديباً ظريفاً شاعراً، وكان لا يصبر عنه ، ونظن ظنّاً أنه هو الذى وصله بشعر عدى، إذ كان يرويه له ويغنّى فيه معبد وغيره من المغنين بمثل هذا الصوت(١) :

بَكَرَ العاذلون فى وَضَح الصُّبْـ ح يقولون لى ألا تَسْتفيقُ
لستُ أدرى وقد جفانى خليلى أعدوٌّ يلومنى أم صديقُ
ثم قالوا ألا اصْبَحُونا فقامتْ قَيْنَةٌ فى يَمينها إبْريقُ(٢)
قدَّمتْه على عُقارٍ كعين الـ ـدِّيك صَفَّى سُلافَها الرَّاووق(٣)

وواضح أن الأبيات من نفس الألحان والأنغام المعروفة للوليد ومَنْ جاءوا بعده من شعراء الخمريات ، وكأن القاسم العبادى هو الذى وجه الوليد ليحتذى فى خمرياته على أسلوب عدى ويجرى فى طريقته .

ويروى الرواة لعدى بجانب شعره فى الخمر أشعاراً فى الفناء وزوال الحياة ، وهى تجرى فى أسلوبين : أسلوب يتحدث عن الحياة والموت وأن الدنيا غير باقية ، وأسلوب قصصى يتخذ من التاريخ وهلاك الملوك والأوائل وسيلة إلى العظة والعبرة ، ومن الأسلوب الأول قوله على لسان المقابر(٤) :

من رآنا فليحدِّثْ نفسَه أنه موفٍ على قَرْنِ زوالِ(٥)
وصروف الدَّهر لا يبْقَى لها ولما تأتى به صُمُّ الجبالِ

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٧/٦٥ .
(٢) اصبحونا : اسقونا خمر الصباح .
(٣) الراووق : الدن .
(٤) الأغانى ٢/١٣٤ .
(٥) قرن : طرف .

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا عندنا ... يشربون الخمرَ بالماء الزُّلالِ[1]
عُمِّرُوا دهرًا بعيشٍ حَسَنٍ ... آمِنِى دَهْرِهِمُ غيرَ عِجالِ
ثم أضْحَوْا عَصَف الدهرُ بهم ... وكذاك الدهرُ يُودى بالرجـالِ
وكذاك الدهرُ يرمى بالفتَى ... فى طِلاب العيش حالا بعد حالِ

فالدنيا إلى زوال وكلُّ من عليها فان، حتّى صُمُّ الجبال، ولا يغرنك ما يغرق فيه بعض الناس من ترف ونعيم، فعمّا قليل يعصف بهم الدهر كما عصف بمن قبلهم . ومن الأسلوب الثانى قوله[2] :

أيُّها الشامتُ المعيِّر بالدَّهْـ ... ـرِ أأنتَ المبرَّأُ الموفـورُ
أم لديك العهدُ الوثيقُ من الأيّـ ... ـام بل أنت جاهلٌ مغرورُ
من رأيت المَنون خَلَّدْن أم مَنْ ... ذا عليه من أن يضام خفير[3]
أين كسرى : كسرى الملوك أنوشِرْ ... وانُ أم أينَ قبله سابورُ
وبنو الأصْفر الكرامُ ملوكُ الـ ... ـرُّوم لم يبق منهمُ مذكور

ويستمر فى ذكر ملوك مختلفين شيدوا قصوراً شامخة، وانتهى أمرهم إلى الفناء، وطوتهم الحُفَر والقبور كأن لم يكونوا شيئاً مذكورا ، إلى أن يقول :

ثم بعد الفلاح والملك والإمّـ ... ـةِ وارتهمُ هناك القبورُ[4]
ثم صاروا كأنهم وَرَقٌ جَـ ... ـفَّ فألْوتْ به الصَّبَا والدَّبورُ[5]

ويكثر البحترى فى حماسته من إنشاد مثل هذه الأبيات لعدى بن زيد التى يتحدث فيها عن الحياة والموت ومصير الملوك السابقين . ونحن لا نطمئن إلى كل هذه الأشعار ، بل نقف منها موقفنا من نظيرها عند الأعشى ، فإن القُصّاص والوعاظ على ما يظهر أضافوا إليه أشعاراً كثيرة حتّى ليمكن القول بأن أكثر ماروى له من أشعار منحول عليه ، ولعل ذلك ما جعل اللغويين

---

(١) الزلال : الصافى العذب .
(٢) الأغانى ٢/١٣٨ .
(٣) المنون : الموت ، وأعاد عليه الضمير مجموعاً .
(٤) الإمة : النعمة .
(٥) ألوت : ذهبت . الصبا والدبور : ريحان .

يرفضون الاستشهاد بشعره ، ولاحظ ابن سلام كثرة الوضع عليه فقال : « عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسَهُل منطقه ، فحُمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد[1] » وأكبر الظن أن هذا هو السبب فى أن المفضل والأصمعى لم يُثبتا له فى مجموعتيهما شيئاً من شعره . وقد قلنا فى غير هذا الموضع إنه لا يفصح فى شعره عن فكرة التثليث المسيحية ، وينبغى أن لا نغلو فى فهم مسيحية أمثال عدى فى الجاهلية ، فإنها لم تكن تتعمق نفوسهم ، وإن كان من المؤكد أنها أثرت فيهم ، بل لقد سقط منها تأثيرات إلى الشعراء الوثنيين فرأيناهم يذكرون أحياناً الرهبان والنواقيس ومحاريب الكنائس وقد يذكرون بعض الأنبياء مما جعل لويس شيخو يسلك أكثر شعراء الجاهلية فى النصرانية ، وهو مخطئ فى ذلك خطأ بيناً .

وربما كان أهم شاعر جاهلى وثنى ظهر عنده واضحاً التأثر بأهل الكتاب أمية[2] ابن أبى الصلت الثَّقَفى ، وهو من الطائف ويقال إنه اتصل بالأحبار وتحنَّف ولبس المسوح وتنسّك . وكان يزور مكة قبل البعثة ، وله مدائح فى سيد من سادتها المشهورين هو عبد الله بن جُدْعان ، الذى يقول له فى بعض مديحه[3] :

أأذكرُ حاجتى أم قد كفانى ... حَياؤك إن شيمتَك الحياءُ
كريمٌ لا يغيِّره صباحٌ ... عن الخُلُقِ الكريم ولا مساءُ
وأرضُك كلُّ مكرمةٍ بنَتْهـا ... بنو تَيْمٍ وأنتَ لهم سماءُ[4]

ويقول أيضاً[5] :

عطاؤك زَيْنٌ لامرئٍ قد حبَـوْتَهُ ... بخيْرٍ ، وما كل العطاء يَزِينُ
وليس بشَيْنٍ لامرئٍ بَذْلُ وَجْهِهِ ... إليك ، كما بعضُ السؤالِ يشِينُ

ولما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه أضلَّه الله فعاداه ، وزيَّن له

(١) ابن سلام ص ١١٧ وانظر الحيوان ١٤٩/٧ والشعر والشعراء ١٧٦/١ .
(٢) انظر فى أمية الأغانى (طبعة الساسى) ٦٩/١٦ وطبعة دار الكتب ٣٢٧/٨ وما بعدها وابن سلام ص ٢٢٠ وما بعدها وخزانة الأدب ١٣٠/١ وحياة الحيوان للدميرى ١٥٤/٢ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٢٩/١ .
(٣) ابن سلام ص ٢٢٢ والأغانى ٣٢٨/٨ .
(٤) بنو تيم : عشيرة عبد الله بن جدعان .
(٥) ابن سلام ص ٢٢٢ والأغانى ٣٢٨/٨ .

الشيطان سوء عمله وأغواه، فلم يُسْلِم، بل أخذ فى معاندة الرسول ومحادَّته بلسانه، ولما هُزِمَتْ قريش فى موقعة بدر هزيمتها المشهورة ، فقُتل كثير من رجالها وسادتها حزَّ ذلك فى نفسه ، فناح على قَتْلاها بقصيدة طويلة يقول فيها[١] :

مـــاذا بِبَدْرٍ فالعَقَنْقَلِ من مَرَازِبَةٍ جَحَاجِحْ[٢]
هلَّا بكيتَ على الكِرا م بنى الكرام أُولى الممادِحْ

وجمع له شولتهس Schulthess مجموعة من أبياته ترجمها إلى الألمانية ونشرها فى ليبزج سنة ١٩١١ وفى سنة ١٩٣٦ نشر له بشير يموت فى بيروت طائفة من أشعاره باسم ديوان أمية . وتدور هذه الأشعار فى موضوعين أساسيين أما الموضوع الأول فيتحدث فيه عن خلق السموات والأرض ونشأة الكون مستدلا بذلك على وجود الله ، ومتحدثاً عن الموت والفناء والبعث والنشور والعذاب والثواب على شاكلة قوله[٣] :

إلهُ العـــالمين وكل أرضٍ وربُّ الراسياتِ من الجبالِ
بناها وابْتَنَى سَبْعاً شِداداً بلا عَمَدٍ يُرَيْنَ ولا رِحال[٤]
وسوَّاها وزيَّنها بنورٍ من الشمس المضيئة والهلال
ومن شُهبٍ تَلألأُ فى دُجاهـــا مراميها أشدّ من النِّصالِ[٥]
وشقَّ الأَرض فانبجستْ عيوناً وأنهارًا من العَذْب الزُّلالِ[٦]
وكلُّ معمَّرٍ لا بُدَّ يوماً وذى دُنيا يصير إلى زوالِ
ويَفْنَى بعد جِدَّتِه ويَبْلَى سوى الباقى المقدّس ذى الجلال
وسِيق المجرمون وهم عراةٌ إلى ذات المقامع والنَّكالِ[٧]
فنادوا وَيْلَنا وَيْلاً طويلا وعَجُّوا فى سلاسلها الطِّوَالِ[٨]

(١) ابن سلام ص ٢٢١ .
(٢) العقنقل : كثيب رمل ببدر . المرازبة : جمع مرزبان وهو رئيس القوم المقدم عليهم . الجحاجح : جمع جحجاح وهو السيد الكريم .
(٣) ديوان أمية (طبعة شولتهس) ص٣٠ .
(٤) السبع الشداد : السموات السبع .
(٥) النصال : جمع نصل وهو حد السيف .
(٦) انبجست : انفجرت .
(٧) المقامع : محاجن من حديد يضرب بها الحيوان الشكس .
(٨) عجوا : صاحوا ورفعوا أصواتهم .

فليسوا ميّتين فيستريحوا وكلهمُ بحرِّ النـــارِ صالِ
وحَلَّ المتقون بدارِ صِدْقٍ وعَيْشٍ ناعمٍ تحت الظلال

وهذه المعانى تستمد من القرآن الكريم بصورة واضحة ، وأساوبها ضعيف واهن، ولذلك كنا نظن ظنّاً أنها وما يماثلها مما نُحل على أمية . والموضوع الثانى الذى يدور فيه شعره ليس أقل من الموضوع الأول اتّهاماً ، بل لعل الاتّهام فيه أوضح ، إذ نراه يقص علينا سير الأنبياء، قَصَصاً لا يكاد يفترق فى شىء عما جاء فى القرآن الكريم كقوله فى رؤية إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل وما كان من افتدائه بذبح عظيم[1] :

ولإبراهيمَ الموفِّىَ بالنَّـــذْ رِ احتساباً وحامل الأَجْزالِ[2]
بِكْرَهُ لم يكن ليَصْبِرَ عَنْهُ أو يراه فى معشرٍ أَقْتَالِ
يا بُنَىَّ أنّنى نذرتك لِلَّـ ـهِ شحيطاً فاصْبِرْ فِدًى لك حالى[3]
فأجاب الغلامُ : أنْ قال فوهُ كلُّ شىء لله غيرَ انتحال
فاقْضِ ما قد نذرتَ لله واكْفُفْ عن دمى أن يمسّه سِرْبالى[4]
بينما يخلع السَّرابيل عنه فكّه ربُّه بكَبْشٍ جُلالِ[5]
قال : خُذْهُ وأرسل ابنك إنِّى للذى إن فعلتما غـيرُ قالِ

وواضح أن هذا شعر ركيك ساقط الأسلوب نظمه بعض القصاص والوعاظ فى عصور متأخرة عن الجاهلية . وقد ذهب هيار يزعم حين اطلع على شعر أمية أنه اكتشف فيه مصدراً من مصادر القرآن الكريم[6] ، ولو كان له علم بالعربية وأساليب الجاهليين لعرف أنه وقع على أشعار منتحلة بينة الانتحال ، ولما تورط فى هذا الخطأ البيِّن، وقد رد عليه غير واحد من المستشرقين[7] . ويظهر

(١) ديوان أمية ص ٣٣ .
(٢) الأجزال : العظائم .
(٣) شحيطاً : ذبيحا .
(٤) سربالى : ثوبى .
(٥) جلال : عظيم .
(٦) انظر الجزء العاشر من المجلة الآسيوية قسم ٤ (١٩٠٤) ص ١٢٥ .
(٧) انظر تاريخ الآداب العربية لبروكلمان ١١٣/١ ودائرة المعارف الإسلامية فى «أمية» .

أن الانتحال على أمية قديم ، فى ابن سلام أن الحسن بن على بن أبى طالب استنشد النابغة الجعدىّ بعض شعره ، فأنشده قصيدته :

الحمدُ لله لا شريك لَهُ من لم يَقُلها فنفسَه ظَلما

فقال له : « يا أبا ليلى ما كنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبى الصلت ، قال : يا بن رسول الله ! والله إنى لأول الناس قالها[1] » وكأن اختلاطاً حدث بين شعر النابغة الجعدى وأمية . ومما نحلوا أمية من قديم أيضاً أشعار مختلفة فى قصص الحيوان والطير وبعض الزواحف كالحيات ، ويشركه عدى فى بعض هذه الجوانب ، وكأن القصاص والوعاظ أجروا على لسانهما كثيراً من الشعر الذى أرادوا به إلى العظة والاعتبار ، وإنما نقول إنهم نحلوهما ذلك من قديم ، لأننا نجد الجاحظ ينشد لهما أشعاراً كثيرة فى هذا الاتجاه[2].

وواضح مما قدمناه أن ما رُوى من أشعار على ألسنة اليهود ومن تنصَّر من العرب فى الجاهلية وكذلك من تحنَّف كأمية دخله وضع كثير ، ولذلك ينبغى أن نحترس منه وأن لا نتسع فى الحكم عن طريقه على ديانات القوم ومعتقداتهم ، إذ يجرى فيه الانتحال ، وقد دخله كثير من الغُثاء والإسفاف فى اللفظ والتعبير .

---

(١) ابن سلام ص ١٠٦ وما بعدها .

(٢) انظر مثلا الحيوان ٢/ ٣٢٠ وما بعدها ، ٣/ ٥١١ ، ٤/ ١٩٦ وما بعدها .